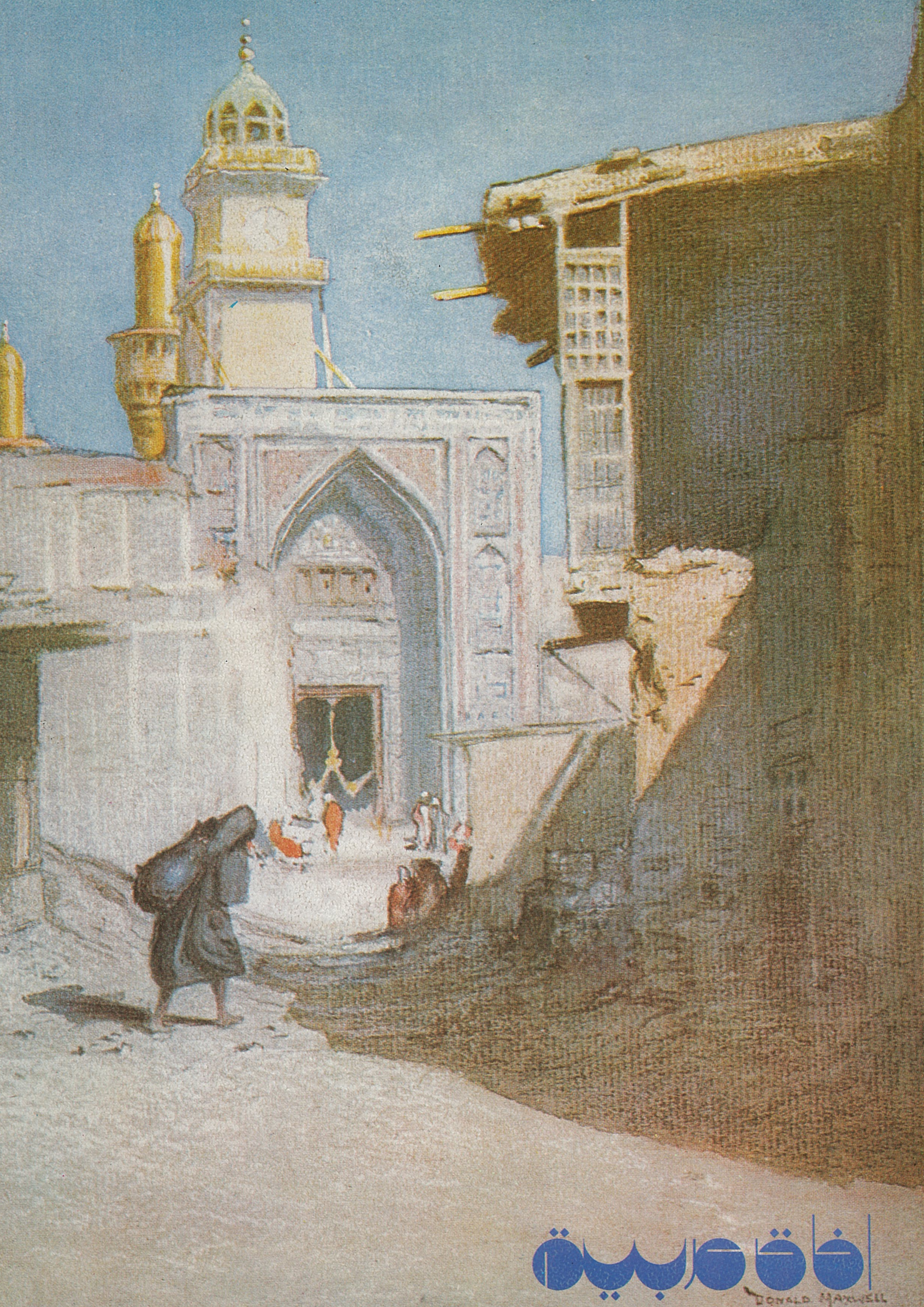
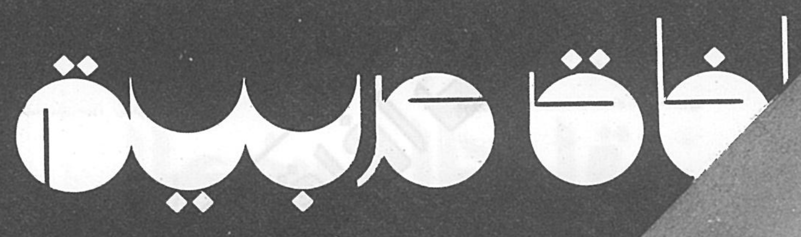

افاق عربية
DONALD MAXWELL



مجلة فكرية شهرية عامة تصدر في بغداد
رئيس التحرير : شفيق الكمالي

من محتويات هذا العدد

في تكوين شخصية الفرد وفي التقدم الأجتماعي



يتحدث المعنيون بشؤون التربية والتعليم في مختلف الاقطار في الوقت الحاضر أحاديث كثيرة ومتواصلة عن ضرورة اجراء تبدلات واسعة وعميقة في نظام التعليم السائد وفي العملية التربوية ذاتها في ضوء التقدم العلمي النظري والتكنولوجي المذهل الحديث . وأحاديثهم هذه معقولة ومقبولة دون شك ونابعة في الأساس من ظروف المرحلة التاريخية الراهنة التي يعيش فيها النوع الانساني في اقطاره المتعددة . وحاجة الجيل الجديد الى التزود بالمعرفة العلمية النظرية والتكنولوجية المعاصرة ضرورة ملحة لاتقل اهميتها عن حاجة المجتمع نفسه الى العلوم الطبيعية لضمان تقدمه المادي والثقافي على حد سواء . ومع ذلك - وربما بسببه - فان حاجة الجيل الجديد الى التزود بالمعرفة الانسانية وبالادب والفن بصورة خاصة ضرورية وملحة ايضا . فلابد له من الالمام الواسع العميق بتاريخ امته (وبخاصة جوانبه التقدمية) ولابد له ايضا من الالمام بلغته القومية وأدبها وبفنه القومي وبالجوانب التقدمية في الادب والفن العالمي الراهن ليصبح ملما بقضايا عصره ومجتمعه ، وملتزما بها وعارفا ماله من حقوق فلا يتخطاها وما عليه من واجبات فلا يتقاعس عن ادائها وليحصل ايضا على تربية شخصية متوازنة ومتكاملة ومتعددة الجوانب . وهذا يعني أن التقدم العلمي النظري والتكنولوجي المعاصر يستلزم -على مانرى- اتخاذ اجراءات تربوية فعالة رايجابية كبيرة وكثيرة تتناول مناهج الدراسة وأساليب التدريس والادارة المدرسية والاشراف التربوي لتنشئة جيل جديد مزود بالمعرفة العلمية النظرية والتكنولوجية وبالعلوم الانسانية وبالآداب والفنون التقدمية لمواكبة سير الحضارة الانسانية المعاصرة .

يتضح اذن ان الاهتمام الكبير بتدريس العلوم الطبيعية النظرية والتكنولوجية (بالنظر لأهميتها في حياة المجتمع) ينبغي الا يغض من منزلة الآداب والفنون في حياة المجتمع أو أن يجعل مكانتهما ثانوية الاهمية في مناهج الدراسة بالموازنة الى العلوم الطبيعية التي تبدو لأول وهلة كأنها تقع وإياهما على طرفي نقيض من ناحية اسلوب البحث ومن جهة المحتوى أو المضمون . في حين أن جميع فروع المعرفة الانسانية ابتداءا من الرياضيات وانتهاءا بالشعر هي بنظرنا اطراف متكاملة في ثقافة اجتماعية واحدة غير قابلة للتجزئة الا لأغراض الدراسة النظرية ، ذلك لانها جميعا - رغم اختلافاتها الكبيرة والكثيرة - تهتم بدراسة الطبيعة والمجتمع والفكر وتؤدي الى تكوين شخصية الفرد المتكاملة المتعددة الجوانب والى تطور المجتمع في الوقت نفسه : عندئذ لاينعزل الادب والفن (وهما سجل المشاعر الانسانية) عن العلوم الطبيعية التي هي اساس تقدم الحضارة المادية بل يتمم كل منهما صاحبه ويثريه . يضاف الى ذلك - ولايقل اهمية عنه - انالادب والفن اذا أحسن تدريسهما وتجسدت جوانبهما الايجابية التقدمية فانهما يصبحان المجال الأكثر ملاءمة لتكوين شخصية الانسان الجديد الشاعر بمسؤولياته الاجتماعية ازاء مجتمعه والملتزم بقضايا امته وعصره والساعي لخدمة مصلحته الخاصة في اطار المصلحة العامة لا خارجها او على حسابها . . وهذا يؤدي - في الشوط البعيد - الى تقدم المجتمع ثقافيا وانسانيا بالاضافة بالطبع الى التقدم العلمي النظري والتكنولوجي اللاحق . وهنا تتجلى الرابطة العضوية بين الادب والفن من جهة وبين العلوم الطبيعية من جهة اخرى . والرابطة العضوية المشار اليها تأخذ شكلين مختلفين ومترابطين ايضا : اولهما اختلاف اسلوب البحث المتبع في المحتوى او المضمون. والثاني في كون العلم دون أناس وبمشاعر انسانية قد لايكون في صالح المجتمع وربما لا يؤدي الى تقدمه .

ومن الجهة الثانية : فان ذوي المشاعر الانسانية عاجزون عن المساهمة الايجابية الفعالة في تقدم المجتمع دون استعانة بالعلوم الطبيعية النظرية والتكنولوجية لأن مشاعرهم تلك تبقى في اطار الأماني الطيبة والاحلام اللذيذة .

تلك ملاحظات عامة وعابرة آثرت الابتداء بها للدخول في صميم الموضوع : « دور الآداب والفنون في تكوين شخصية الفرد وفي التقدم الاجتماعي » . وللتحدث عن ذلك يجمل بي أن أشير الى ان حاجة الانسان الى الادب والفن (المعبر عنها في الاصل بما يسمى الفولكلور الشعبي) لاتقل اهمية والحاحا عن حاجته الى الطعام والسكن واللباس . فقد لوحظ عبر التاريخ انالآداب والفنون الشعبية قديمة قدم الانسان على سطح الارض لانها أهم وسائل الاتصال بين الناس وأقدم ادوات التعبير عن الذات وعن المشاعر الايجابية والسلبية ازاء الطبيعة والناس والاحداث .

احتلت الآداب والفنون مركزا مرموقا في نظام التعليم منذ اقدم العصور . وقد ذكر الرواة ان افلاطون (427 - 347ق.م) كان يعتبر المعلم الناجح فنانا . وقد ثبت في الوقت الحاضر - في ضوء الابحاث السايكولوجية والتربوية وفي ضوء الممارسات الفعلية والمشاهد اليومية المعتادة - ان للتربية الفنية والادبية اثرا عميقا في تكوين شخصية الفرد منذ طفولته المبكرة لانها تصقل مشاعره وتهذب ذوقه وتنمي خياله وتساعد على نشوء قدرته على الابتكار وتغرس في نفسه النظرة الفنية الجمالية للطبيعة الحية والجامدة كما تعوده ايضا على اتقان فن التحدثوالاصغاء وتركيز الانتباه وتقوية الذاكرة والتفكير وحب الوطن والأمة وتنمي الخلق الرفيع والقدرة على التعبير عن المشاعر والمطامح وتبعث الثقة بالنفس والتفاؤل والبهجة (اذا أحسن تدريسها وتجسدت جوانبها الايجابية التقدمية) .

يفترض كثير من رجال التربية وعلم النفس - دون سند علمي - ان تعلم الادب والفن يستلزم « قدرات فطرية عقلية خاصة يتصف بها بعض الناس دون غيرهم . وعندي -اذا كانلي عند كما يقول الجاحظ - ان هذا الرأي ليس صحيحا على هذا الوجه

من وجوه الاطلاق ولابد من تحديد مداه تحديدا علميا ليصبح منسجما مع الممارسات الفعلية ومع أحدث نظريات التربية وعلم النفس . ولتوضيح ذلك اقول - بأيجاز - أن لدينا في تعليم الادب والفن وفي تعلمهما ثلاثة مستويات عامة (مع فروق فردية كبيرة وكثيرة في كل مستوى تتعذر الاحاطة بها ولاتستدعي الضرورة ان ندخل في تفاصيلها) . هذه المستويات هي في نظري :

أولا - الحد الادني المشترك الموجود لدى جميع الافراد الاسوياء (التلاميذ في حالة التعليم في جميع مراحله) . وهذا يعني أن بأمكان اي تلميذ ان يتعلم الادب والفن تماما كما يتعلم التاريخ او الجغرافية : أي أن بمستطاع الطفل ان يتذوق الادب والفن بالاصغاء والممارسة اذا هيئت له الظروف المنزلية والمدرسية الملائمة . والعامل الفسلجي الوراثي المهم في هذه الناحية هو بنظرنا المرونة الهائلة للدماغ في هذهالمرحلة المبكرة وحيث تكون ايضا مشاعر الطفل واخيلته وقدراته الابتكارية في ارفع درجات صعودها وحيث قدرته على الاستجابة النشطة الفعالة لا تكاد تقف عند حد . وقد ثبت ان المرونة الدماغية المشار اليها تتحجر عندما لا تستثمر الى حدها الاقصى وعلى أفضل وجه .

ثانيا : أما المستوى الثاني من مستوياتتعليم الادب والفن وتعلمهما فهو ارقى من المستوى الاول واضيق منه ولكنه يشترك معه في خصائصه العامة الفسلجية والسايكولوجية المشتركة التي تحدثنا عنها . هذا المستوى هو مستوى تعلم الادب والفن لأغراض مهنية صرفة كتعلم التاريخ او الجغرافية . وكما أنه لايشترط حتما بمعلم التاريخ ان يكون مؤرخا وبمعلم الجغرافية ان يكون جغرافيا بالمعنى .. العلمي الدقيق . هكذا الحال في معلم الادب او الفن (وان كان الامر في الادب والفن يحتاج الى بذل جهد اكبر وممارسة اكثر) . وهذا يعني - بعبارة اخرى - ان للعوامل البيئية في هذا الباب (داخل المدرسة وخارجها) الأثر الحاسم ولا علاقة لذلك الا عرضا بالوراثة البايولوجية التي سيأتي ذكرها في المستوى الثالث والاخير .

ثالثا ، مستوى الاصالة والابتكار الفني والادبي . وهذا يستلزم بالطبع مزايا فطرية خاصة ينفرد بها بعض الناس دون غيرهم . وهذا مستنبط من المشاهدة الفعلية ومن الدراسات النظرية والميدانية . وهذه المزايا الفطرية تسمى « القدرات العقلية الخاصة » .

لقد اختلف علماء النفس فيما بينهم اختلافا كبيرا في تفسير طبيعة « القدرات الخاصة » بما فيها «القدرات الفنية » و « القدرات الادبية » رغم اتفاقهم على انها « فطرية » او « موروثة بايولوجيا . وهم ينقسمون على وجه العموم الى مجموعتين : **تفترض الاولى منهما وجود تلك القدرات تفسيرا** سايكولوجيا ميتافزيقيا باعتبارها « قوى لاجسمية ولكنها موجودة داخل الجسم . ويرتبط رأي هذه المجموعة بنظرية « الذكاء الفطري » المعروفة . أما المجموعة الثانية فتفترض القدرات العقلية الخاصة امكانيات فسلجية مخية من حيث الاساس الجسمي (الوعاء : الاداة) من جهة كما تفترض ايضا ان المحتوى السايكولوجي لتلك الامكانيات المخية بيئيا: بيئي الاصل او اجتماعي ،منشأة يكتسبه الفرد في مجرى حياته ويرتفع بارتفاع المستوى الثقافي للفرد والمجتمع والعصر الذي يعيش فيه . وعلى هذا الاساس فان الاديب الاصيل « المتنبي : الجواهري ، شكسبير مثلا » والفنان المبتكر (موزارت : بيتهوفن مثلا) هو نتاج التفاعل والاثر المتبادل بين امكانياته المخية التي ينفرد بها وبين ظروفه البيئية وبخاصة الادبية والموسيقية منها . معنى هذا ان الامكانيات المخية وان كانت شرطا ضروريا لنشوء الاديب او الفنان الاصيل الا انها وحدها او في حد ذاتها لا تكونه . كما ان البيئة الادبية والفنية في حد ذاتها غير كافية لتكوين الاديب او الفنان الاصيل .

وفي الختام نود ان نؤكد مرة اخرى ان التربية الادبية والفنية التي ندعو اليها لاتستلزم بالضرورة ان يمتلك المتعلم « قدرات فطرية خاصة » كما لا تستلزم بالضرورة ان يصبح المتعلم بعد ذلك أديبا كبيرا او فنانا مرموقا او محترفا تماما كما لايستلزم تعلمه التاريخ مثلا ان يصبح مؤرخا . كما نود ان ننبه الى انه اذا كان بمستطاع المرء ان يستغني في حالات معينة ونادرة عن درس الجغرافية مثلا دون ان يؤثر ذلك تأثيرا عميقا في شخصيته من الناحية السايكولوجية الايجابية فأنه من غير المستطاع الاستغناء عن التمتع بالادب والفن لما لهما من بالغ الاثر في تهذيبالمشاعر وتكوين المثل الاخلاقية العليا والمواقف الوطنية والانسانية النبيلة . هذا بالاضافة بالطبع الى كون الادب والفن هما من ادوات « المتعة »ولهما ايضا اوثق الارتباط بالجانب الابداعي من الحياة وبأعادة صوغ الطبيعة ورفعها الى مستوى أعلى من الاناقة والجمال . كما أود كذلك ان اؤكد على ضرورة ان نتوخى في التربية الادبية والفنية تنمية الخيال والقدرة على الابتكار وان يحاط التلاميذ بروح التشجيع والحث والتنشيط شريطة ان نأخذ بعين الاعتبار ان للأدب والفن جوانبسياسية وايديولوجية كبيرة وكثيرة تقدمية او متخلفة رجوعية فهي تجسد الجوانب التقدمية وتقلل الى الحد الادنى تأثير الجوانب السلبية ،كل هذا يشير الى مايمكن تسميته « العلاقة بين الادب والفن وبين مطامح الجماهير » وهو الذي يؤدي الى الدعوة لجعل الادب والفن في متناول الجماهير . مع العلم ان هذه القضية معقدة ومتعددة الجوانب وبخاصة في المجتمعات النامية التي مازالت الجماهير فيها بعيدة عن تذوق الادب والفن والتي مازال ارباب الادب والفن ينظرون اليهما النظرة التقليدية الاقطاعية المترفة . وهذا موقف خاطيء بنظرنا وبخاصة في المجتمعات النامية ذات الانظمة السياسية والاقتصادية التقدمية كالعراق . فلابد والحالة هذه من القيام بعملية مزدوجة يتصل احد طرفيها بأعادة صوغ أرباب الفن والادب من جهة ويتصل جانبها الثاني برفع مستوى ثقافة الجماهير . وهذا هو برأينا جوهر مبدأ الالتزام في الادب والفن : الالتزام بقضايا المجتمع والامة والعصر . عندئذ ينصهر الاديب والفنان في المجتمع مع احتفاظه بمقوماته الفردية الايجابية المميزة التي ينفرد بها . كما يعبر المجتمع عن نفسه في سلوك الفرد الذي يجد سعادته في سعادة الآخرين ولاينظر الى نفسه بمعزل عنهم .